الآيات بين حالة الاتفاق وحالة الاختلاف وبيَّنَتْ جزاء كل منهما .

فالفصل إما فصل أماكن ، وإما فصل جزاءات ، قالوا : بالطبع فالحكم بينهم : هذا مُحِقٌّ وهذا مُبطِل سيؤدى إلى اختلاف الأماكن واختلاف الجزاءات .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ [الحج] لأن الله تعالى هو الحكَم الذى يفصل بين عباده ، والحكم يحتاج إما إلى بينة أو شهود ، والشهود لا بُدَّ أن يكونوا عُدولاً ، ولا يتحقق العدل فى الشهادة إلا بدين يمنع الإنسان أنْ يميل عن الحق ، فإن كان الحكم هو الله فلا حاجة لبيِّنة ، ولا حاجةَ لشهود ؛ لأنه سبحانه يحيط علمه بكل بشىء ، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض .

ومن العجيب أن الحُكْم والفَصْل من الحق سبحانه يشمل كل السلطات : التشريعية والقضائية والتنفيذية ، فحُكْمه سبحانه لا يُؤجَّل ولا يُتحَايل عليه ، ولا تضيع فيه الحقوق كما تضيع فى سراديب وأدراج المحاكم .

أما حُكْم البشر فينفصل فيه التشريع عن القضاء عن التنفيذ ، فربما صدر الحكم وتعطَّل تنفيذه ، أما حكم الله فنافذ لا يُؤجِّله شىء .

إذن : المسألة لن تمرَّ هكذا ، بل هى محسوبة لك أو عليك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ ... ﴾ (١٨) [الحج] يعنى : ألم تعلم ؛ لأن السجود من هذه الأشياء سجود على حقيقته كما نعلمه في السجود من أنفسنا ، ولكل جنس من أجناس الكون سجود يناسبه .

وسبق أن تحدثنا عن أجناس الكون وهي أربعة : أدناها الجماد ، ثم يليه النبات ، حيث يزيد عليه خاصية النمو وخاصية الحركة ، ثم يليه الحيوان الذي يزيد خاصية الإحساس ، ثم يليه الإنسان ويزيد عليه خاصية الفكر والاختيار بين البدائل .

وكل جنس من هذه الأجناس يخدم ما هو أعلى منه ، حيث تنتهي هذه الدائرة بأن كل ما في كون الله مُسخَّر لخدمة الإنسان ، وفي الخبر : « يا ابن آدم خلقتُ الأشياء من أجلك ، وخلقتُكَ من أجلي ، فلا تشتغل بما هو لكَ عمَّنْ أنت له »(١) .

فكان على الإنسان أن يفكر في هذه الميزة التي منحه ربه إياها ، ويعلم أن كل شيء في الوجود مهما صَغُر فله مهمة يؤديها ، ودور يقوم به . فأوْلَى بك أيها الإنسان وأنت سَيِّد هذا الكون أنْ يكون لك مهمة ، وأن يكون لك دور في الحياة فلستَ بأقلَّ من هذه المخلوقات التي سخَّرها الله لك ، وإلاَّ صرْتَ أقلَّ منها وأدنى .

إن كانت مهمة جميع المخلوقات أنْ تخدمك لأنك أعلى منها ، فانظر إلى مهمتك لمَنْ هو أعلى منك ، فإذا جاءك رسول من أعلى منك ليُنبِّهك إلى هذه المهمة كان عليك أن تشكره ؛ لأنه نبَّهك إلى ما ينبغي لك أن تشتغل به ، وإلى مَنْ يجب عليك الاتصال به دائماً ؛ لذلك فالرسول لا يصح أن تنصرف عنه أبداً ؛ لأنه يُوضِّح لك مسائل كثيرة هي مَحَلٌّ للبحث العقلي .

(١) قال ابن كثير في تفسيره (٤/٢٣٨) : « ورد في بعض الكتب الإلهية : يقول الله تعالى : ابن آدم خلقتك لعبادتي فلا تلعب ، وتكفلت برزقك فلا تتعب ، فاطلبني تجدني ، فإن وجدتني وجدت كل شيء ، وإن فُتُّك فاتك كل شيء ، وأنا أحبُّ إليك من كل شيء » ، وقد أخرج أحمد في مسنده (٢/٣٥٨) عن أبي هريرة رفعه ، قال الله : ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى وأسد فقرك وإلا تفعل ملأتُ صدرك شغلاً ولم أسدَّ فقرك » .

وكان على العقل البشرى أن يفكر فى كل هذه الأجناس التى تخدمه : ألكَ قدرة عليها ؟ لقد خدمتْكَ منذ صغرك قبل أنْ تُوجِّه إليها أمراً ، وقبل أنْ توجدَ عندك القدرة لتأمر أو لتتناول هذه الأشياء ، كان عليك أنْ تتنبه إلى القوة الأعلى منك ومن هذه المخلوقات ، القوة التى سخَّرَتْ الكون كله لخدمتك ، وهذا بَحْث طبيعى لا بُدَّ أن يكون .

هذه الأشياء فى خدمتها لك لم تتأبَّ عليك ، ولم تتخلف يوماً عن خدمتك ، انظر إلى الشمس والقمر وغيرهما : أقالت الشمس يوماً : إن هؤلاء القوم لا يستحقون المعروف ، فلن أطلع عليهم اليوم ؟!

الأرض : هل ضنَّتْ فى يوم على زارعها ؟ الريح : هل توقفتْ عن الهبوب . وكلها مخلوقات أقوى منك ، ولا قدرةَ لك عليها ، ولا تستطيع تسخيرها ، إنما هى فى قبضة الله - عز وجل - ومُسخَّرة لك بأمره سبحانه ، ولأنها مُسخَّرة فلا تتخلف أبداً عن أداء مهمتها .

أما الإنسان فيأتى منه الفساد ، ويأتى منه الخروج عن الطاعة لما منحه الله من منطقة الاختيار .

البعض يقول عن سجود هذه المخلوقات أنه سجود دلالة ، لا سجوداً على حقيقته ، لكن هذا القول يعارضه قول الله تعالى :

﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ .. (٤١) ﴾ [النور]

فلكل مخلوق مهما صَغُر صلاة وتسبيح وسجود ، يتناسب وطبيعته ، إنك لو تأملت سجود الإنسان بجبهته على الأرض لوجدتَ اختلافاً بين الناس باختلاف الأحوال ، وهم نوع واحد ، فسجود الصحيح غير سجود المريض الذى يسجد وهو على الفراش ، أو جالس على مقعد ، وربما يشير بعينه ، أو أصبعه للدلالة على السجود ، فإنْ لم يستطع أجرى السجود على خاطره .

فإذا كان السجود يختلف بهذه الصورة في الجنس الواحد حَسْب حاله وقدرته وطاقته ، فلماذا نستبعد أن يكون لكل جنس سجوده الخاص به ، والذى يتناسب مع طبيعته ؟

وإذا كان هذا حال السجود في الإنسان ، فهل ننتظر مثلاً أن نرى سجود الشمس أو سجود القمر ؟! ما دام الحق - سبحانه وتعالى - قال-إنها تسجد ، فلا بُدَّ أن نؤمن بسجودها ، لكن على هيئة لا يعلمها إلا خالقها عز وجل .

بالله ، لو جلس مريض يصلى على مقعد أو على الفراش ، أتعرف وهو أمامك أنه يسجد ؟ إذن : كيف نطمع في معرفة كيفية سجود هذه المخلوقات ؟

ومن معانى السجود : الخضوع والطاعة ، فمَنْ يستبعد أن يكون سجود هذه المخلوقات سجوداً على الحقيقة ، فليعتبر السجود هنا للخضوع والانقياد والطاعة ، كما تقول على إنسان متكبر : جاء ساجداً يعني : خاضعاً ذليلاً ، ومنه قوله تعالى : ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١)﴾ [فصلت]

إذن : لك أن تفهم السجود على أىّ هذه المعانى تحب ، فلن تخرج عن مراده سبحانه ، ومن رحمة الله أنْ جعل هذه المخلوقات خاضعة لإرادته ، لا تنحلّ عنها أبداً ولا تتخلف ، كما قال سبحانه : ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (٧٢)﴾ [الأحزاب]

ونحن نتناقل الآن ، ونروى بعض حوارات السالكين وأهل المعرفة وأصحاب الفيوضات الذين فَهِموا عن الله وتذوَّقوا لذَّة قُرْبه ، وكانوا يتحاورون

ويتنافسون لا للمباهاة والافتخار ، إنما للترقى فى القرب من الله .

جلس اثنان من هؤلاء العارفين وفى فَمِ أحدهم نَخْمة يريد أنْ يبصقها ، وبدتْ عليه الحيرة ، وهو ينظر هنا وهناك فقال له صاحبه: ألْقها واسترح ، فقال : كيف وكلما أردتُ أنْ أبصقها سمعت الأرض تُسبِّح فاستحيْتُ أنْ أُلقيها على مُسبِّح ، فقال الآخر - ويبدو أنه كان فى منزلة أعلى منه - وقد افتعل البَصْق وقال : مُسبِّح فى مُسبِّح .

إذن : فأهل الكشف والعارفون بالله يدركون هذا التسبيح ، ويعترفون به ، وعلى قدر ما لديك من معرفة بالله ، وما لديك من فَهْم وإدراك يكون تلقِّيك وتقبُّلك لمثل هذه الأمور الإيمانية .

والحق - سبحانه وتعالى - حين قال : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ .. (١٨) ﴾ [الحج] معلوم أن مَنْ فى السموات هم الملائكة ولسْنا منهم ، لكن نحن من أهل الأرض ويشملنا حكم السجود وندخل فى مدلوله ، فلماذا قال بعدها : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ .. (١٨) ﴾ [الحج] ؟

كلمة : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ .. (١٨) ﴾ [الحج] تُبيِّن أن لنا قهريةً وتسخيراً وسجوداً كباقى أجناس الكون ، ولنا أيضاً منطقة اختيار . فالكافر الذى يتعوَّد التمرُّد على خالقه : يأمره بالإيمان فيكفر ، ويأمره بالطاعة فيعصى ، فلماذا لا يتمرد على طول الخط ؟ لماذا لا يرفض المرض إنْ أمرضه الله ؟ ولماذا لا يرفض الموت إنْ حَلَّ به ؟

إذن : الإنسان مُؤتمر بأمر الله مثل الشجر والحجر والحيوان ، ومنطقة الاختيار هى التى نشأ عنها هذا الانقسام : كثير آمن ، وكثير حَقَّ عليه العذاب .

لكن ، لماذا لم يجعل الله - سبحانه وتعالى - الخَلْق جميعاً مُسخَّرين ؟

قالوا : لأن صفة التسخير وعدم الخروج عن مرادات الله تثبت لله تعالى صفة القدرة على الكل ، إنما لا تُثبت لله المحبوبية ، المحبوبية لا تكون إلا مع الاختيار : أن تكون حُراً مختاراً فى أنْ تؤمنَ أو تكفر فتختار الإيمان ، وأنْ تكون حُراً وقادراً على المعصية ، لكنك تطيع ..

وضربنا لذلك مثلاً - ولله المثل الأعلى - : هَبْ أن عندك عبدين ، تربط أحدهما إليك فى سلسلة مثلاً ، وتترك الآخر حُراً ، فإنْ ناديتَ عليهما أجاباك ، فأيهما يكونَ أطْوعَ لك : المقهور المجبر ، أم الحر الطليق ؟ .

إذن : التسخير والقهر يُثبت القدرة ، والاختيار يُثبت المحبة .

والخلاف الذى حدث من الناس ، فكثير منهم آمن ، وكثير منهم حقَّ عليه العذاب ، من أين هذا الاختلاف يا رب ؟ مما خلقتُه فيك من اختيار ، فمَنْ شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر ، فكأن كفر الكافر واختياره : لأن الله سَخَّره للاختيار ، فهو حتى فى اختياره مُسخَّر .

أما قوله تعالى : ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ .. ۝١٨﴾ [الحج] يعنى : باختياراتهم ، وكان المفروض أن يقول فى مقابلها : وقليل ، لكن هؤلاء كثير ، وهؤلاء كثير أيضاً .

ومعنى : ﴿حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ .. ۝١٨﴾ [الحج] حقَّ : يعنى ثبتَ ، فهذا أمر لا بُدَّ منه ، حتى لا يستوى المؤمن والكافر : ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ۝٣٥﴾ [القلم] إذن : لا بُدَّ أنْ يعاقب هؤلاء ، والحق يقتضى ذلك .

وقوله سبحانه : ﴿وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا

يَشَاءُ ﴿١٨﴾ ﴾ [الحج] لأن أحقيَّة العذاب من مُساوٍ لك ، قد يأتي مَنْ هو أقوى منه فيمنعه ، أو يأتي شافع يشفع له ، وكان الحق - سبحانه وتعالى - يُيئِّسُ هؤلاء من النجاة من عذابه ، فلن يمنعهم أحد .

فمَنْ أراد الله إهانته فلن يُكرمه أحد ، لا بنُصْرته ولا بالشفاعة له ، فالمعنى : ﴿ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [الحج] أي : بالعذاب الذي حَقَّ عليه وثبت ﴿ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [الحج] يعني : يكرمه ويُخلِّصه من هذا العذاب ، كذلك لا يوجد مَنْ يُعزه ؛ لأن عزَّته لا تكون إلا قَهْراً عن الله ، وهذا مُحَال ، أو يكون بشافع يشفع له عند الله ، ولا يشفع أحد عند الله إلا بإذنه سبحانه .

لذلك ، نقول : إن الحق سبحانه يُجير على خَلْقه ولا يُجَار عليه ، يعني : لا أحد يقول لله : هذا في جواري ؛ لذلك ذَيَّلَ الآية بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿١٨﴾ ﴾ [الحج]

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى[1] :

﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ۖ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ ﴾

كلمة خَصْم من الألفاظ التي يستوي فيها المفرد والمثنى

---

(١) سبب نزول الآية : عن أبي ذر - رضي الله عنه - أنه كان يقسم قسماً ، إن هذه الآية ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [الحج] نزلت في الثلاثة والثلاثة الذين تبارزوا يوم بدر ، وهم : حمزة بن عبد المطلب ، وعبيدة بن الحارث ، وعلي بن أبي طالب ، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة ، والوليد بن عتبة . قال علي رضي الله عنه : أنا أول من يجثو في الخصومة على ركبتيه بين يدي الله يوم القيامة . أورده الواحدي في أسباب النزول (ص ١٧٦) ، والدر المنثور للسيوطي (٦/١٨) وعزاه للبخاري ومسلم وغيرهما .

والجمع ، وكذلك المذكر والمؤنث كما فى قوله تعالى ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾﴾ [ص]

ويقول تعالى : ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ .. ﴿٢٢﴾﴾ [ص]

والمراد بقوله : ﴿خَصْمَانِ .. ﴿١٩﴾﴾ [الحج] قوله تعالى : ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ .. ﴿١٨﴾﴾ [الحج] والخصومة تحتاج إلى فَصْل بين المتخاصمين ، والفَصْل يحتاج إلى شهود ، لكن إنْ جاء الفَصْل من الله تعالى فلن يحتاج إلى شهود ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾﴾ [النساء]

وإنْ جاء عليهم بشهود من أنفسهم ، فإنما لإقامة الحجة ولتقريعهم ، يقول تعالى : ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ .. ﴿٢١﴾﴾ [فصلت]

فإنْ قلتَ : كيف تشهد الجوارح على صاحبها يوم القيامة وهى التى فعلت ؟

نقول : هناك فَرْق بين عمل أريده وعمل أؤديه ، وأنا أبغضه وضربنا لذلك مثلاً - ولله المثل الأعلى - بالقائد الذى يأمر جنوده ، وعليهم أنْ يُطيعوه حتى إنْ كانت الأوامر خاطئة ، فإنْ رجعوا إلى القائد الأعلى حكَوْا له مَا كان من قائدهم ؛ ذلك لأن القائد الأعلى جعل له ولاية عليهم ، وألزمهم طاعته والائتمار بأمره .

فالخالق - عز وجل - جعل لإرادة الإنسان ولاية على جوارحه ، فالفعل - إذن - للإرادة ، وما الجوارح إلا أداة للتنفيذ . فحينما تريد مثلاً أنْ تقوم ، مجرد أن تريد ذلك تجد نفسك قائماً دون أنْ تفكر فى حركة القيام أو العضلات التى تحركتْ لتؤدى هذا العمل ، مع أنها

عملية مُعقَّدة تتضافر فيها الإرادة والعقل والأعصاب والأعضاء ، وأنت نفسك لا تشعر بشيء من هذا كله ، وهل في قيامك أمرتَ الجوارح أنْ تتحرَّك فتحركتْ ؟

فإذا كانت جوارحك تنفعل لك وتطاوعك لمجرد الإرادة ، أفلا يكون أوْلى من هذا أنْ ينفعل خَلْق الله لإرادة الله ؟

إذن : العمدة في الأفعال ليستْ الجوارح وإنما الإرادة ، بدليل أن الله تعالى إذا أراد أنْ يُعطِّل جارحة من الجوارح عطَّل الإرادة الآمرة ، وقطعها عن الجارحة ، فإذا هي مشلولة لا حركةَ فيها ، فإنْ أراد الإنسان تحريكها بعد ذلك فلن يستطيع ، لماذا ؟

لأنه لا يعلم الأبعاض التي تُحرِّك هذه الجارحة ، ولو سألتَ أعلم الناس في علم الحركة والذين صنعوا الإنسان الآلي : ما الحركة الآلية التي تتم في جسم الإنسان كي يقوم من نومه أو من جِلْسته ؟ ولن يستطيع أحد أنْ يصفَ لك ما يتم بداخل الجسم في هذه المسألة .

أما لو نظرتَ مثلاً إلى الحفَّار ، وهو يُؤدِّي حركات أشبه بحركات الجسم البشري لوجدتَ صبياً يشغله باستخدام بعض الأزرار ، ويستطيع أنْ يصفَ لك كل حركة فيه ، وما الآلات التي تشترك في كل حركة . فَقُلْ لي بالله : ما الزر الذي تضغط عليه لتحرك يدك أو ذراعك ؟ ما الزر الذي تُحرِّك به عينيك ، أو لسانك ، أو قدمك ؟ إنها مجرد إرادة منك فينفعل لك ما تريد ؛ لأن الله تعالى خلقك ، وجعل لإرادتك السيطرة الكاملة على جوارحك ، فلا تستبعد أنْ تنفعل المخلوقات لله - عز وجل - إنْ أراد منها أنْ تفعلَ .

حتى العذاب في الآخرة ليس لهذه الجوارح والأبعاض ، إنما العذاب للنفس الواعية ، بدليل أن الإنسان إذا تعرَّض لألم شديد

لا يستريح منه إلا أنْ ينام ، فإذا استيقظ عاوده الألم .. إذن : فالنفس هى التى تألم وتتعذَّب لا الجوارح .

والحق سبحانه هو الذى يفصل بين هذيْن الخصميْن ، كما قال سبحانه فى آية أخرى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .. (١٧)﴾ [الحج]

لذلك يقول الإمام على رضى الله عنه وكرَّم الله وجهه[1] : أنا أول مَنْ يجثو بين يدى الله يوم القيامة للفصل ومعى عبيدة بن الحارث وحمزة بن عبد المطلب . هؤلاء فى جانب وفى الجانب المقابل : عتبة ابن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، والوليد بن عتبة .

لماذا ؟لأن بين هؤلاء كانت أول معركة فى الإسلام ، وهذه أول خصومة وقعتْ فيه ، ذلك لأنهم فى معركة بدر أخرج رسول الله ﷺ قوماً للمبارزة ، وكانت عادتهم فى الحروب أنْ يخرج أقوياء القوم وأبطالهم للمبارزة بدل أنْ يُعذِّبوا القوم ويشركوا الجميع فى القتال ، ويُعرِّضوا أرواح الناس جميعاً للخطر .

ومن ذلك ما حدث بين على ومعاوية ـ رضى الله عنهما ـ فى موقعة صفِّين حيث قال على لمعاوية : ابرز إلىَّ يا معاويةُ ، فإنْ غلبتنى فالأمر لك ، وإنْ غلبتُك فاجعل الأمر لى ، فقال عمرو بن العاص وكان فى صفوف معاوية : والله ، يا معاوية لقد أنصفك الرجل ، وفى هذا حَقْنٌ لدماء المسلمين فى الجانبين .

فنظر معاوية إلى عمرو وقال : والله يا عمرو ما أردْتَ إلا أن أبرز

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧٤٤) قال : « أنا أوَّل من يجثو بين يدى الرحمن للخصومة يوم القيامة » قال قيس بن عباد : وفيهم نزلت ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ .. (١٩)﴾ [الحج] قال : هم الذين بارزوا يوم بدر : على وحمزة وعبيدة وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة .

له فيقتلني ، ويكون لك الأمرُ من بعدي ، وما دُمْتَ قد قلتَ ما قلتَ فلا يبارزه غيرك فاخرج إليه .

فقام عمرو لمبارزة علي ، لكن أين عمرو من شجاعة علي وقوته ؟ وحمل عليٌّ على عمرو حملة قوية ، فلما أحسَّ عمرو أن علياً سيضربه ضربة تميته لجأ إلى حيلة ، واستعمل دهاءه في صَرْف عليٍّ عنه ، فكشف عمرو عن عورته ، وهو يعلم تماماً أن علياً يتورع عن النظر إلى العورة ، وفعلاً تركه عليّ وانصرف عنه ، ونجا عمرو بحيلته هذه(١) .

وقد عبَّر الشاعر عن هذا الموقف فقال :

وَلاَ خَيْرَ في رَدِّ الرَّدَى بِدَنيَّةٍ ... كَما رَدَّهَا يَوْماً بِسَوْأَته عَمْرُو

ويقول الشريف(٢) الرضي - وهو من آل البيت - في القصيدة التي مطلعها :

أَرَاكَ عَصِيَّ الدَّمْعِ شِيمَتُكَ الصَّبْرُ ... أَمَا لِلْهَوَى أَمْرٌ عليْكَ ولاَ نَهْيُ

(١) ذكر ابن كثير في كتابه « البداية والنهاية » (٤/٢٧٤) أن علياً رضي الله عنه نادى : ويحك يا معاوية ، ابرز إليّ ولا تفني العرب بيني وبينك ، فقال له عمرو بن العاص : اغتنمه فإنه قد أثخن بقتل هؤلاء الأربعة ، فقال له معاوية : والله لقد علمت أن علياً لم يقهر قط ، وإنما أردت قتلي لتصيب الخلافة من بعدي ، اذهب إليه ، فليس مثلي يُخدع . وذكروا أن علياً حمل على عمرو بن العاص يوماً فضربه بالرمح فألقاه إلى الأرض فبدت سوءته فرجع عنه ، فقال له أصحابه : مالك يا أمير المؤمنين رجعت عنه ؟ فقال : أتدرون ما هو ؟ قالوا : لا قال : هذا عمرو بن العاص تلقاني بسوءته فذكرني بالرحم فرجعت عنه ، فلما رجع عمرو إلى معاوية قال له : احمد الله واحمد إستك .

(٢) هو : محمد بن الحسين أبو الحسن الرضي العلوي الحسيني ، أشعر الطالبيين ، مولده ٣٥٩ هـ ووفاته (٤٠٦ هـ) في بغداد ، انتهت إليه نقابة الأشراف في حياة والده . له « المجازات النبوية » ، « مجاز القرآن » ، « خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب » [الأعلام للزركلي ٦ / ٩٩] .

بَلَى أنَا مُشْتَاقٌ وعِنْدِى لَوْعَةٌ   وَلَكِنْ مِثْلِى لاَ يُذَاعُ لَهُ سِرُّ

• وفيها يقول :

وَإنَّا أنَاسٌ لاَ تَوسُّطَ بَيْنَنَا   لَنَا الصَّدْرُ دُون العَالَمِينَ أو القَبْرُ

نعود إلى بدر ، حيث اعترض الكفار حينما أخرج لهم رسول الله بعض رجال الأنصار فقالوا : هؤلاء نكرات من الأنصار ، نريد أن تُخرِج لنا أكْفَاءنا من رجال قريش ، فأخرج لهم رسول الله ﷺ علياً وحمزة وعبيد بن الحارث بن عبد المطلب ، وأخرجوا هم عتبة وشيبة والوليد ، وكان ما كان من نُصْرة المسلمين وهزيمة المشركين[1].

وهذا هو اليوم الذى قال الله فيه : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣) ﴾ [آل عمران]

إذن : فبدر كانت فَصْلاً دنيوياً بين هذيْن الخصْمين ، ويبقى فَصْلُ الآخرة الذى قال فيه الإمام على : « أنا أول مَنْ يجثو بين يدى الله يوم القيامة للفصل » .

ومعنى : ﴿ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ .. (١٩) ﴾ [الحج] أى : بسبب اختلافهم فى ربهم ، ففريقٌ يؤمن بوجود إله ، وفريقٌ يُنكره ، فريق يُثبت له الصفات ، وفريق ينفى عنه هذه الصفات ، يعنى : انقسموا بين إيمان وكفر .

---

(١) ذكر ابن هشام فى « السيرة النبوية » (٦٢٥/٢) أن عتبة بن ربيعة خرج بين أخيه شيبة بن ربيعة وابنه الوليد بن عتبة ، حتى إذا فصل من الصف دعا إلى المبارزة ، فخرج إليه فتية من الأنصار ثلاثة ، وهم : عوف ، ومُعوذ ، ابنا الحارث - وأمهما عَفْراء - ورجل آخر يقال : هو عبد الله بن رواحة - فقالوا : من أنتم ؟ قالوا : رهط من الأنصار . قالوا : ما لنا بكم من حاجة . ثم نادى مناديهم : يا محمد ، أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا ، فقال رسول الله ﷺ : قُمْ يا عبيدة بن الحارث ، وقُمْ يا حمزة وقُمْ يا على ، فلما قاموا ودنوا منهم ، قالوا : من أنتم ؟ قالوا : نعم ، أكفاء كرام ، فبارز عبيدة ، وكان أسنَّ القوم ، عتبة ابن ربيعة ، وبارز حمزة شيبة بن ربيعة ، وبارز علىٌّ الوليدَ بن عتبة » .